السمات المعمارية والفنية لمساجد القصبة السفلى بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية.

Architectural and artistic characteristics of the mosques of the Lower Casbah of Algiers during the Ottoman period

خليل وهيبة.

جامعة يحيى فارس؛ المدية (الجزائر).

البريد الإلكتروني: *khelil.ouahiba@univ-medea.dz*

تاريخ الإرسال: 22/05/08؛ تاريخ القبول:22/05/20؛ تاريخ النشر:22/06/01

الملخص:

تعتبر مدينة الجزائر مثل سائر مدن العالم الإسلامي التي شهدت تحولا سياسيا أثر على نشاطها وحركتها المعمارية، وظهرت بها معالم دينية متنوعة كالمساجد، التي تهدف الى غرس القيم والأخلاق في نفوس السكان، وقد اعتنى الجزائريون خلال الفترة العثمانية بالمساجد التي أصبحت أكثر انتشارا، وذلك راجع إلى طبيعة الحكم، حيث أن سياسة العثمانيين كانت تشجع على اتخاذ المساجد، فعند دخولهم إلى مدينة الجزائر توسع نسيجها المعماري، وأحيطت بأسوار ضمت بداخلها مجموعة من العمائر، من بينها المساجد التي بنيت في القصبة العليا والسفلى، وما يهمنا في هذا البحث هو المساجد السفلى وعددها ثلاثة وهي (جامع كتشاوة، والجامع الجديد، وجامع علي بتشين)، والتي مازالت باقية إلى يومنا هذا،

وبنيت بطرز متنوعة، منها ما هو موروث ومنها ما هو طراز محلي جزائري مغربي، وتكمن أهمية البحث في دارسة هذه المساجد تاريخيا ومعماريا وفنيا، وإبراز أوجه التشابه والاختلاف بين السمات المعمارية والفنية، وبين ما هو محلي متوارث، وما هو وافد عثماني.

الكلمات المفتاحية: الطراز المعماري؛ المساجد؛ قصبة الجزائر؛ الفترة العثمانية.

Abstract:

During the Ottoman period, the Algerians took care of mosques, which became widespread, due to the nature of governance, as the policy of the Ottomans encouraged the emergence of mosques, when the Ottomans entered the city of Algiers, its expanded architectural fabric, What interests us in this research are the three lower mosques (Ketchaoua Mosque, the New Mosque and the Ali Batchin Mosque), which is still a set to this day, and was built in various styles. The importance of the research lies in the historical, architectural and artistic study of these mosques, and in highlighting the similarities and differences between the architectural and artistic characteristics, and what is local hereditary and what is an expatriate Ottoman.

Key words: Architectural style; mosques; Kasbah of Algiers; Ottoman period.

مقدمة:

يعود انتشار المساجد في العالم الإسلامي إلى العهود الأولى لانتشار الإسلام، والملاحظ أنها أصبحت أكثر انتشارا في العهد العثماني، وذلك راجع إلى طبيعة الحكم، حيث أن سياسة العثمانيين كانت تشجع ظهور المساجد، مما جعل المؤسسة تلعب دورا هاما في

المجتمعات آنذاك، فعند دخول العثمانيين إلى مدينة الجزائر توسع نسيجها المعماري، وأحيطت بأسوار ضمت بداخلها مجموعة من العمائر، من بينها المساجد التي كان عددها مائة مسجد استنادا إلى الباحثين الغربيين،(Augustin, 1937, p. 226) والتي اندثر الكثير منها، لأن الفرنسيين هدموا عددا هائلا منها، سواء المبنية بالطراز المغربي أو ذات الطراز العثماني، وهذا لقطع الصلة الحضارية التي تربط الجزائر بالخلافات الإسلامية السابقة.

من المعروف أن الإسلام هو دين تفتح على الحضارات ومن هذا المنطلق ازداد حماس الفنان المسلم وتعطشه للاطلاع على الحضارات التي تجاوره أو سبقته، وكانت له قدرة كبيرة لاستيعاب ما جادت به قرائح فناني البلدان التي فتحها المسلمون فكانت بمثابة ما يسمى بالمادة الخام التي سيصهرها في قالب يتفق وشخصيته ودينه، فانحصرت منجزاته في شكل يكاد يشبه بعضه بعضا في سائر الأمة الإسلامية، ومع هذا فقد ظهر بعض الاختلاف والتباين الطفيف الذي تفرضه كل بيئة وتختص به تقاليدها الموروثة والاحتماء من قساوة الطبيعة، ولا أحد ينكر عملية التأثير والتأثر التي تولدها الحاجة والاحتكاك لتحقيق حضارة تتوافق وقيم كل أمة، فمدينة الجزائر مثل سائر مدن العالم الإسلامي آنذاك شهدت تحولا سياسيا أثر على نشاطها وحركتها المعمارية والفنية، وظهرت بها معالم دينية ذات طرز جديدة، فهذا الطراز الذي ظهر بهذه المساجد منه ما هو موروث محلي جزائري مغربي، ومنها ما هو تأثير عثماني محض، والذي يمكن حصره في جوانب عديدة تتعلق بنظام التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية الفنية المستعملة، وعليه سنحاول من خلال هذا البحث

دراسة مساجد مدينة القصبة السفلى لمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية وهي (جامع كتشاوة، الجامع الجديد، جامع علي بتشين)، وتوضيح هذا التباين، وتكمن أهمية البحث في دارسة هذه المساجد تاريخيا معماريا وفنيا، وفق تسلسل كرونولوجي، وإبراز أوجه التشابه والاختلاف بين السمات المعمارية والفنية، وبين ما هو محلي متوارث، وما هو وافد عثماني، فما هو الطراز السائد في عمارة هذه المساجد وسماته الفنية؟

جامع كتشاوة:

موقعه وتاريخ تأسيسه:

على الرغم من التشويه الكامل الذي تعرض له الجامع أثناء فترة الاحتلال الفرنسي إلا أنه بقي من أشهر المساجد بمدينة الجزائر، يقع جامع كتشاوة في الساحة المسماة حاليا بساحة ابن باديس في القصبة السفلى، وكتشاوة أو (كجي آوى) كلمة تركية تعني هضبة الماعز أو رحبة الماعز، وسمي بهذا الاسم لأن المكان الذي بني عليه المسجد كان سوقا تجاريا يباع فيه الماعز. (Dokali, 1974, p. 12)، وقد أجمع المؤرخون أن المسجد بني في القرن 14م، حيث ذكر في القرن 16م من بين المساجد السبعة الموجودة بمدينة الجزائر، (باغلي، 1982، ص: 83) ولا توجد أي معلومات عن اسم المؤسس، وحتى المراجع لم تذكر ذلك، إلا أن "دوفو" ذكر أن أقدم الوثائق التي ذكرت وأشارت إلى المسجد تعود إلى سنة 1021هـ/1612 -1613م، وأن المسجد كان مذكورا آنذاك، ولكن لم يذكر معلومات عنه، وقد كان عبارة عن مسجد صغير أعيد بناؤه تماما من طرف حسن باشا سنة 1209هـ/ 1794م -1795م، وشيد مكانه مسجدا رائع البنيان على

نمط مسجد السيدة الذي كان يقابل قصر الجنينة في ساحة الحكومة (ساحة الشهداء حاليا)(Devoulx, 1870, p. 164) وهذا ما تشير إليه الكتابة المنقوشة على الرخام والمحفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة، والتي كانت فوق البوابة الرئيسية التي كانت تقع في الجهة الشمالية،(Devoulx, 1870, p. 165) ونصها: (الصورة 1)

السطر الأول: الإطار الأول: حبذا جامع يرام بالمنا (كذا) من مبلغ القصد

الإطار الثاني: وتبسم بروق الختام من افق العهد

الإطار الثالث: بناء سلطاننا الرضى عظيم القدر

الإطار الرابع: حسن باشا بالبهاء عديم المثل والند

السطر الثاني: الإطار الأول: قد افنى لتشييد أساسها على التقى

الإطار الثاني: ثقل فخاره من مال تجل عن العد

الإطار الثالث: وحاز بهجة لدى الناظرين ارخ

الإطار الرابع: لما كملت كالسعد وباليمن والمجد سنة 1209(بورويبة، 1984، ص: 214)

صورة 1: الكتابة التأسيسية لجامع كتشاوة

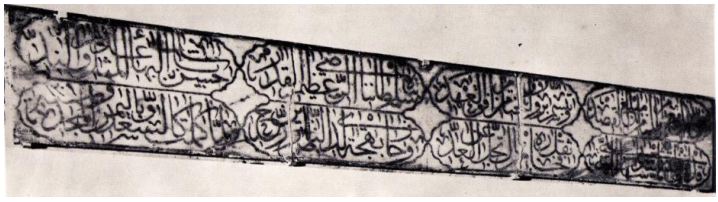

عن: (بورويبة، 1984، ص: 214)

كما سمي بمسجد النساء لأن في داخله أروقة كبيرة تشرف على "الردهة"، المربعة الشكل تغطيها قبة مثمنة تحيط بها أعمدة رخامية من ثلاثة جوانب، خصصت للنساء المصليات وتسمى تلك الأروقة في الجزائر بـ "السدة"، وهي تحيط بالردهة كلها، ويبلغ طولها

65م، وعرضها 3.30م، (Devoulx, 1870, p. 165) أما الفرنسيون فقد أطلقوا عليه اسم جامع الكتابات الكبرى، لأن الجدران كانت مزخرفة بالكتابات الرائعة التي تعتبر آية في فن الخط، وأيضا الخزفيات، كان يشرف على أوقافه شركة سبل الخيرات التي كانت تعتني بالأوقاف الحنفية، (Devoulx, 1870, p. 170) وفي يوم 24 ديسمبر 1832م مسح المسجد وحوله الاستعمار الفرنسي إلى كاتدرائية، وقد أشرف على ذلك الجينرال "الدوق دوروفيغو"، واستنكارا لهذا العمل اعتصم فيه حوالي أربعة ألاف مسلم، فقتل عدد كبير منهم، (André Julien, 1964, p. 192) ، وفي سنة 1962م أعيد كتشاوة للعبادة الإسلامية. (بوشوش، 1973، ص: 290) (الصورة3،2،1)

صورة 1: جامع كتشاوة قبل سنة 1830

عن: (Wyld, 1835)

صورة 2: جامع كتشاوة بعد تحويله إلى كاتدرائية

عن: المكتبة الوطنية الفرنسية (1835)

صورة 3: جامع كتشاوة حاليا

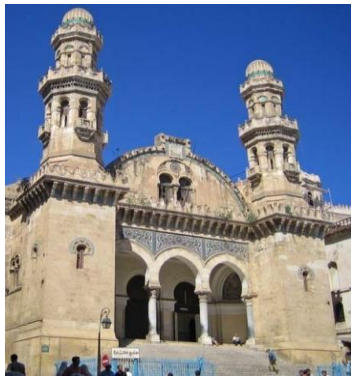

عن : المؤلف.

الوصف المعماري للمسجد قبل تحويله إلى كنيسة:

حسب الباحث "دوفو"، فقد كان مسجد كتشاوة قبل تحويله إلى كنيسة يرتسم شكل بيت الصلاة فيه فوق مستطيل، بسبب إضافة رواق ثان موازي لجدار القبلة، أما هو في الواقع فيقوم على مخطط مربع الشكل تطوقه الأروقة من الجهات الأربعة، وقبة كبيرة ذات قاعدة ثمانية، وهذه الأروقة قوامها أربعة أعمدة غلاظ مستديرة

ملساء، مازال معظمها يدعم جناحي الكنيسة سابقا والمسجد حاليا، وعدد هذه الأعمدة خمسة في رواق الجبهة الشمالية ومثلها في الرواق الجنوبي، أما في رواق القبلة والمماثل له فلكل منها أربعة أعمدة، وعلى الأعمدة الأربعة الموجودة في كل رواق من أروقة المسجد تنطلق قواعد العقود وكأنها سعاف نخيل متجهة في ثلاثة اتجاهات، وبذلك تختلف عن الطراز المعروف في مباني مدينة الجزائر، وقد غطيت الأروقة بقباب أقل مستوى عن القبة المركزية ولكن مع مراعاة نفس النسق في وضع القباب (فوق الحنايا الركنية كما في القبة المركزية)، والعدد الإجمالي للقباب مع القبة المركزية اثنين وعشرون قبة. (Dokali, 1974, p. 38) (الشكل 1).

مخطط مسجد كتشاوة يتشابه إلى حد كبير مع مخطط مسجد علي بتشين، وينتهي المسجد من الناحية الخلفية بالميضأة، والمئذنة التي توجد في الركن الجنوبي ولها تصميم مربع، كما توجد سدة مثل التي توجد في المساجد الحنفية وهذا يعني أن مسجد كتشاوة كان يتبع المذهب الحنفي.

شكل1: المخطط العام للجامع

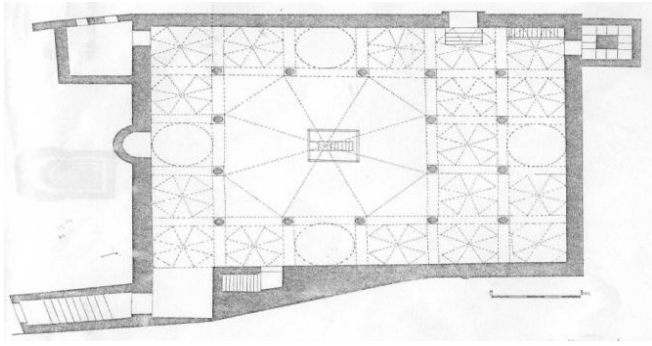

عن: (Dokali, 1974)

أما المحراب فقد كان يتوسط الواجهة الشرقية التي فيها باب صغير، أما الباب الرئيسي فكان في الواجهة الجنوبية وبدون شك كانت الكتابة التأسيسية الموجودة في المتحف الوطني للآثار القديمة مثبتة فوق هذا الباب، كما ذكر سابقا، والباب القديم لمسجد كتشاوة محفوظ في المتحف الوطني للآثار القديمة أيضا، وهو من صناعة "أحمد بن لابلاطشي" نجار التأثيث الشهير التركي الاسم، الإسلامي العقيدة، (Marçais G. , 1954, p. 450) أما الباب فقد صنع خصيصا للجامع، وحين هدم هذا البناء سنة 1843م، نقل الباب إلى كنيسة (*Notre dame des victoire* -جامع علي بتشين)، وبعدها نقل وحفظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة. (Marçais G. , 1996, p. 32)

ورغم تميزه بزخارف ذات تأثيرات أوربية (فن الركوكو والباروك)، إلا أنه يحتوي على شعار يرمز إلى الصناعة الإسلامية بعبارة (ما شاء الله) التي يحملها في إحدى حشواته، وقد صنع من خشب الأرز وينقسم إلى خمسة أجزاء متنوعة الزخرفة(صورة 4).

أما المئذنة التي لم يعد لها أثر فقد كانت موجودة في الركن الجنوبي، ذات طراز مغربي أي على شكل مربع، أما المئذنتين الموجدتين الآن فهما من العهد الفرنسي.

صورة4: الباب الأصلي لجامع كتشاوة

عن : المؤلف

الدراسة الفنية:

جاء المسجد من الناحية الفنية ثريا بالزخارف منها الهندسية والكتابية والنباتية، فهذه الاخيرة اقتصرت على الزخرفة الرقشية المحورة عن الرقش العربي الأصلي إلى الرقش المتطور على يد الفنانين الشرقيين خاصة الشرق الأدنى، والذي له تأثيرات من الطراز الأوربي الحديث، أما الزخرفة النباتية والمربعات الخزفية المزدانة بأزهار القرنفل في معظمها وورقة الأكنثة وكذلك أزهار الزنابق في بعض الأبدان المتصلة بأسفل القباب (عقاب، 1987، ص: 132).

أما الزخارف الهندسية فقد جاءت قليلة بالمقارنة مع العناصر الأخرى، وهي تنحصر في الأشعة المتوهجة في نواة الطاقة الركنية إلى أنصاف الدوائر المتناوبة فوق بعضها البعض في كامل مساحة القبة، فهذه الوضعية للزخرفة تجذب النظر إليها وتدخل الراحة والاطمئنان في نفوس الناظرين، أما الزخارف الكتابية فقد توزعت في أماكن كثيرة من المسجد فوق جبهة المحراب وجدران المسجد المختلفة، وعلى أبدان

الشمسيات (القمريات) المخرمة وقد جمع "كولان" مجموعة لا بأس بها من الآيات القرآنية، وجمل التمني والتهليل والترحيب والتبرك، معظمها كتبت بخط الثلث، البعض منها محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة، وتوجد آيات قرآنية متنوعة مثل "سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقب الدار" سورة الرعد الآية 24، وقد حفرت فوق جبهة عقد المحراب.(Colin, 1901, p. 163)

كما تضمن المسجد عبارات الترجي وطلب الخير والتهليل مثل: "وأنه مسجد يبعث بهجة لدى الناظرين"، كما ذكرت أسماء أصحاب الكهف على الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر عددهم، وهذه الأسماء تزدان بها الشمسيات والقمريات الموزعة على جبهة المحراب وإطاره، والشمسيات الموجودة على القبة المركزية وقد كتبت بخط الثلث الجلي وهذه الأسماء هي (يمليخا - مكشلينا - مثلينا - مرنوش - شادنوش - كفشطيوش - قطمير) (عقاب، 1987، ص: 134).

جامع علي بتشين:

موقعه وتاريخ تأسيسه:

يقع جامع علي بتشين في القصبة السفلى وبالتحديد في الركن الشمالي الشرقي للشارع الكبير الرابط بين باب غزون وباب الوادي ويكون زاوية التقاطع بين شارعي باب الوادي والقصبة، أسس سنة 1032هـ/1622م، وقد عرف باسم مؤسسه وما زال يعرف بهذا الاسم ليومنا هذا، وعلي بتشين هو من أصل إيطالي وبالضبط من البندقية (*Venise*)، واسمه الحقيقي (*Piccini*) أو (*Picenino*) ويشير "دوفو" أنه ذكر في أحد الوثائق الشرعية سنة 1007هـ/1599م، أن القائد "بتشين"

كان عبدا ثم أعتقه أو حرره القائد "فتح الله بن خوجة بيري"، كان مسيحيا ثم اعتنق الإسلام، وصار يخرج للغزو ضد المسيحيين(Devoulx, 1870, p. 58) اختار لنفسه اسم علي وعرف بعد ذلك باسم "علي بتشين بن عبد الله"، ويذكر "دوفو" أنه في سنة 1115هـ -1703م تحول اسم المسجد ليأخذ اسم سيدي المهدي وهو وكيل ذلك المسجد.(Devoulx, 1870, p. 59) وقد كان ذكيا، ومن أشهر القراصنة في ذلك الوقت وصار سنة1621م الرئيس البحري المسلم به ومن أقوى رجال مدينة الجزائر. (Belahemiss, 1983, p. 85)

حول المسجد الذي أسسه وسمي باسمه في بداية الاحتلال الفرنسي إلى مقر كان مخصص للصيدلية المركزية للجيش الفرنسي، وفي سنة 1843 حول إلى كنيسة تعرف باسم كنيسة (*Notre dame de victoire*)، ثم أرجع إلى أصله ابتداء من سنة 1963م. (Dokali, 1974, p. 38).

الوصف المعماري للمسجد:

يغطي المسجد مساحة تقدر بـ 500م^2، بالنسبة للوصف المعماري الخارجي للمسجد فهو يتألف من واجهتين رئيسيتين، الواجهة الشمالية الشرقية، والواجهة الجنوبية الشرقية، هاته الأخيرة تشرف على شارع باب الوادي والتي تمثل جدار القبلة نفسه بحيث نلاحظ تجويف المحراب من الخارج وهو محراب مضلع يكتنفه إلى اليمين واليسار شباكين معقودين بعقد مدبب، ويعلو المحراب والشبابيك على طول الواجهة طنف بارز مشكل بقراميد ذات لون أخضر، وفي أقصى الواجهة إلى اليمين أسفل الطنف نجد فتحة مربعة للإضاءة والتهوية، وقد كان يحد هذه الواجهة من الأسفل سبعة دكاكين وهي عبارة

عن مخازن كانت تستعمل لمختلف الأنشطة التجارية، وتحتوي هذه الواجهة على مدخلين أحدهما يوصل إلى الميضأة المنشأة حديثا والثاني هو مدخل رئيسي يقع في الركن الجنوبي الغربي والموصل إلى يمين المحراب يصعد إليه من باب خارجي ضيق بواسطة سلم متكون من ثمانية عشر درجة ويبلغ عرض الباب 1.40م وارتفاعه 2.37م، مصنوع من الخشب ذو مصراعين خالي من أية زخرفة، أما في الركن الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي وهي الزاوية الرابطة بين شارعي باب الوادي والقصبة فتشغله مئذنة مربعة الشكل(الصورة5 ،6).

صورة 5: مسجد علي بتشين حاليا

عن: المؤلف.

صورة 6: الواجهة الجنوبية الشرقية لجامع علي بتشين

عن: المؤلف.

أما الواجهة الشمالية الشرقية، فهي التي تطل على شارع القصبة فقد فتحت بها ثلاثة نوافذ وترتكز هذه الواجهة على تسعة دكاكين، (Devoulx, 1870, p. 57) كما يوجد بهذه الواجهة مدخل كبير وهو المدخل الرئيسي للجامع، وهو أيضا يؤدي إلى بيت الصلاة، ويوصل إلى سقيفة طولها 4.90م وعرضها 1.90م وارتفاعها 2.40م، ومنها إلى مؤخرة المسجد عبر باب آخر عرضه 1.90م وارتفاعه 2.40م، مصنوع من الخشب ذو مصراعين به زخارف هندسية عبارة عن معينات تتوسطها مستطيلات، فللمسجد مدخلين.

يتوسط السطح قبة مركزية يحيط بها من الخارج خمسة عشر قبة صغيرة وذلك في الجهات الثلاثة أي في رواق القبلة والرواق الشمالي الشرقي والرواق الجنوبي الغربي وذلك بمعدل خمسة قباب في كل رواق، وهذه القباب تتميز بصغر حجمها بالمقارنة بالقبة المركزية، وتتألف هي بدورها من ثمانية أضلاع أربعة منها تشغلها شبابيك على نفس نمط شبابيك القبة المركزية، أما الرواق الشمالي الغربي لرواق القبلة فهو مغطى بقبو ضخم متقاطع يتقابل عند الرأس ويأتي في الدرجة الثانية من حيث الحجم بعد القبة المركزية، وهذه المساحة التي يغطيها هذا القبو كانت قديما عبارة عن صحن أو ساحة غير مسقفة توجد بها أشجار وتتوسطها نافورة، ولكن تغير المسجد في العهد الاستعماري حين حول إلى كنيسة، فجهز بهذه الطريقة ليتلاءم مع طبيعة الطقوس في الديانة المسيحية. (Devoulx, 1870, p. 58) ويقدر طول كل ضلع من أضلاع القبة المركزية من الخارج عند بداية السطح بـ:2.50م بينما يبلغ كل ضلع من أضلاع القباب الثانوية المحيطة بالقبة المركزية ب 1.40م(الصورة7).

صورة 7: القبة المركزية وقباب الجامع من الخارج

عن: المؤلف.

أما بالنسبة للوصف المعماري الداخلي للمسجد فهو يتألف من مساحة مربعة وسطى عبارة عن مربع مركزي مغطى بقبة ضخمة يقدر عدد أضلاعها بثمانية أضلاع وتقوم هذه القبة على 12 عقدا مدببا وترتكز العقود نفسها على أربعة دعامات متقاطعة وضخمة تشغل أركان المربع المركزي لها، طول ضلعها 1.03م و1.50م وتتخلل هذه الدعامات صفوف الأعمدة المزدوجة بمعدل صفين في كل ضلع من أضلاع المربع المركزي ويقدر ارتفاع العمود الواحد بـ 2.50م.

يحيط بالمربع المركزي أروقة من الجهات الثلاثة، وهذا الفراغ أو المربع المركزي تحيط به أربعة بوائك من جهاته الأربعة كل بائكة تتألف من ثلاثة عقود، أما بائكة رواق القبلة فان الأعمدة فيها تتألف من صفين من الأعمدة المستديرة كل صف يتألف من عمودين توأمين أبدانهما مستقلة أما قواعدهما وتيجانهما فمشتركة، أما المحراب فيبلغ عرضه 1.70م وعمقه 1.60م وارتفاعه يقدر بـ3م.(شكل 2، صورة8)

الشكل2: المخطط العام للجامع

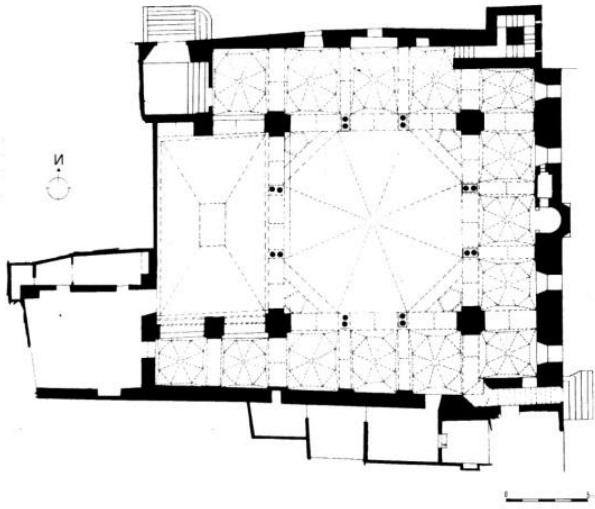

عن : (Dokali, 1974)

صورة 8: منظر المسجد من الداخل

عن: المؤلف.

العناصر المعمارية:

تقع المئذنة في الركن الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي للمسجد، وقد فقد جزء كبير من منارته سنة 1843م عند تحويل

المسجد إلى كنيسة، ويبلغ ارتفاعها حوالي 15م، قاعدتها (المربعة) بارزة تتألف من طابقين فقدت جزأها العلوي، وقد زينت واجهاتها الثلاثة بحنيات عبارة عن دخلات مصمتة معقودة بعقد متجاوز، وهي فقيرة من حيث الزخرفة، كما فتحت بالجزء السفلي للمئذنة فتحات صغيرة مستطيلة الشكل عبارة عن شبابيك للإضاءة والتهوية، وكانت تشغل واجهتها الشرقية حنفية تعرف باسم (عين الشارع الكبير، وقد أجريت على المئذنة والمسجد عملية الترميم. (اللوحة1)، أما المحراب فهو سداسي الأضلاع يكتنفه عمودان رخاميان يحملان عقدا حذويا، وقد كسي المحراب ببلاطات خزفية حديثة يغلب عليها اللون الأزرق.

لوحة 1 : مئذنة جامع علي بتشين خلال الفترة الاستعمارية وحاليا

عن : (Wyld، 1835) والمؤلف.

تتميز قباب هذا المسجد سواء القبة المركزية الكبيرة التي تغطي مربع بيت الصلاة أو القباب الصغيرة التي تعلو الأروقة المحيطة بها بمنطقة انتقال متماثلة تتمثل في الحنايا الركنية المؤلفة من مثلثات قاعدتها في الأعلى ورأسها في الأسفل وقد جعلت هذه الحنايا في أركان مربع الفراغ المركزي فحولته إلى مثمن أقيمت عليه القبة المركزية التي تنتهي بدائرة في الأعلى تنطلق منها ثمانية في كل ضلع

شباك صغير معقود ومخرم بزخارف جصية هندسية مملوءة بزجاج ملون والمشكل على هيئة نجوم وأطباق نجمية، أما القباب المحيطة بالقبة المركزية فتألف من ثمانية أضلاع من الخارج تشكل أربعة أضلاع منها شبابيك القبة المركزية وتقابل الأضلاع الثمانية أربعة أضلاع من الداخل يشغل كل ضلع منها شباك جصي مخرم بأشكال هندسية عبارة عن نجوم مملوءة بزجاج ملون.

يحتوي الجامع على ثلاثة أعمدة مزدوجة جعلت في صفين بكل جهة من جهة الفراغ المركزي وهي أعمدة حجرية مغطاة بطبقة جصية ملونة بالأزرق وهي ذات بدن مستدير يقدر ارتفاعه بـ2.50م وكل صف يتألف من عمودين توأمين. وقد زينت هذه الأخيرة في أعلاها بشريط من الفسيفساء باللون الأزرق، أما التيجان فهي بسيطة تحتوي على زخارف نباتية عبارة عن مراوح نخيلية وأنصاف وكل هذه الأعمدة ليست أصلية في المسجد وإنما جددت وعملت في وقت متأخر عنه غير أنها اتخذت موضع الأعمدة القديمة.

أما الدعامات فعددها سبعة، خمسة مستقلة ودعامتين حائطيتين بجدار القبلة، يقدر طول ضلعها بـ1.05م أما ارتفاعها فيقدر بـ2.55م يوجد بالمسجد ثلاثة أنواع من العقود، العقود الحذوية المدببة، والعقود المتجاوزة، وهي السائدة في المسجد، والعقود النصف دائرية، وهي موجودة فوق الأبواب.

العناصرالفنية والزخرفية:

تعتبر زخارف المسجد فقيرة ومنعدمة، وكل ما نجده ليس إلا زخرفة حديثة عملت بطريقة تقلد الزخارف المغربية في عصر الازدهار في العصور الوسطى، وترتكز هذه الزخارف في الشبابيك بالقبة

المركزية وشبابيك القباب الثانوية المألوفة من نجوم وأطباق نجمية وفقا للتقاليد المغربية، وهناك زخارف أخرى على هيئة معينات محفورة في الجص وهي معينات تحدها خطوط مفصصة ويتوسطها اسم الجلالة (الله) بالخط الكوفي على أرضية نباتية من مراوح نخيلية وأنصافها، كما نجد زخارف أخرى تحلي التيجان المربعة وهذه الزخارف عبارة عن مراوح نخيلية مزدوجة باللون الأصفر، أما عن زخارف كوشاة العقود و أركانها فتتألف من عناصر متصلة ببعضها على هيئة عقود ثلاثية تتوسطها ورقة نباتية ثلاثية الفصوص.

الجامع الجديد:

موقعه وتاريخ تأسيسه:

يقع الجامع الجديد أو جامع الحواتين أو السماكين كما تسميه العامة في ساحة الشهداء، بني هذا الجامع خلال القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي أي في سنة 1070هـ/1660م، (Klein, 1937, p. 153) على أنقاض مدرسة (بوعنان)، ويتضح ذلك من خلال الشريط الكتابي المنفذ على الجص والمثبت بطريقة أفقية على يسار المحراب، طول هذا الشريط 1.18م وعرضه0.21م هذا نصه:

"الحمد لله وحده من يتعرف بسب طلوع المسجد وكيله الحاج حبيب وتمامه في سنة 1070"(Dokali, 1974, p. 36) .

يرى "دوفلوكس" أن "الحاج حبيب" كان المسؤول على البنائين، ولم يول هذا المنصب إلا قبيل إتمام بناء المسجد، ورغم هذا فقد استطاع تخليد اسمه من خلال هذه الكتابة. (Devoulx, 1870, p. 136)

فالجامع أنشئ من طرف وكيل جمعية خيرية عرفت لدى العثمانيين بالجزائر بجمعية سبل الخيرات التابعة للمذهب الحنفي، بمساعدة الجنود الأتراك الذين شاركوا في عملية البناء، وهذا ما تدلنا عليه كتابة على لوح رخامي يوجد أعلى واجهة الباب الرئيسي الغربي من المسجد نصها كالتالي: "وأنه بعون الله تبارك وتعالى تم في عهده الزاخر، بناء هذا المسجد والله يسد خطى جنودها المنتصرين، ويجازى كل واحد منهم بألف جزاء".(Colin, 1901, p. 52) و"الحاج حبيب" الذي ذكر في الكتابة الأولى هو بدون شك مدير الأشغال(بورويبة، 1984، ص: 127).

يعد الجامع الجديد من أروع وأجمل ما خلفته لنا الهندسة المعمارية التركية بمدينة الجزائر، وقد نسج حوله أسطورة غريبة، مفادها أن من وضع تخطيطه كان من الأسرى النصارى وأجبره المسلمون على بناء المسجد فقرر في نفسه أن يبنيه على شكل صليب، وكانت النتيجة قتل الأسير وبقاء المسجد قائم على شكل صليب لاتيني(سعد الله، 1998، ص: 33).

الوصف المعماري للجامع:

يظهر المسجد من الخارج على شكل صليب لاتيني بالنظر إليه من أعلى فهو بذلك يتبع تخطيط كنيسة القديسة "آيا صوفيا" بإسطنبول والتي اتخذها الأتراك حسب "جورج مارسي" النموذج الرسمي في تشييد مساجدهم، خاصة أثناء حكم الدولة العثمانية، (Marçais G. , 1954) يتربع على مساحة قدرها 1371.2 م^2، ويتخذ الجامع تخطيط على شكل شبه مربع يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب

الشرقي، يبلغ طوله 39.50م وعرضه 24م وفي العرض الآخر 24.50م. (الصورة9، 10).

صورة 9: منظر عام للجامع حاليا مأخوذ من أعلى

صورة 10: منظر عام للجامع سنة 1842

عن: (Klein, 1937)

المظهر الخارجي لهذا المسجد يوحي ببساطة لا تخلو من التناسق والأناقة رغم خلو واجهاته من الزخرفة، وعدم ظهور أي مادة للبناء لأنه مغطى بطبقة من الملاط جعلته ناصع البياض، تخترق جدرانه بعض الشمسيات، وللمسجد خمسة أبواب، بابين رئيسيين، واحد في الواجهة الغربية، والثاني في الواجهة الشمالية، وثلاثة أبواب ثانوية، واحد

بجانب الباب الرئيسي الغربي، والبابان الآخران بالجدار الشمالي، أما المئذنة فتقع في الركن الشمالي الشرقي(الشكل3).

تتخذ بيت الصلاة الشكل شبه المربع طولها 39.5م وعرضها 24.5م بدون الأخذ بعين الاعتبار سمك الجدران التي هي بمعدل 1م، يقوم المسجد على ثماني دعامات ضخمة، تقسم بيت الصلاة إلى ثلاث بلاطات وخمسة أساكيب، وتعتبر المساحة التي يغطيها القبوان المهديان (البلاطة الوسطى والاسكوب الثاني) هي الأكبر، وتشكل نقطة التقائهما مربعا تحدده أربع دعامات وتتوجه قبة، بقية المساحة تغطيها قباب صغيرة في أركان الأسكوب الأول والثالث، وأقبية مضلعة في أركان الأسكوبين الرابع والخامس. (الشكل 15)

شكل 3: الواجهة الشمالية الشرقية للجامع

عن : (Doukali 1974)

العناصر المعمارية:

محراب الجامع الجديد من النوع المضلع وعدد أضلاعه سبعة يكتنفه عمودان رخاميان مدمجان بالجدار، على هيئة عقد حذوي متجاوز، مزين ببلاطات خزفية في الجهة السفلية للمحراب، أما في

الجهة العليا فهو مزخرف بزخارف جصية بنوعيها الكتابية والنباتية(اللوحة2).

لوحة 2: رسم لمحراب الجامع وصورته الحالية.

عن: (Ballu 1884) والباحثة

بنيت مئذنة الجامع في الركن الشمالي الغربي من المسجد وهي مربعة الشكل تتبع في ذلك نفس النظام السائد في المآذن المغربية، ارتفاعها 29.5م وهذا قبل الأشغال التي تمت في شارع البحرية، أما طولها الحالي فهو 25م، وهي مكونة من قسمين، قسم يضم بدن المئذنة والقسم الآخر يضم رأسها، فبدنها يتكون من أربعة أجزاء، زين أحد أجزائها ببلاطات خزفية، وتشغلها الدائرة التي ركبت فيها الساعة التي وضعتها الإدارة الفرنسية للمئذنة والتي جلبوها من منارة قصر الجنينة عام 1847م، وفي سنة 1857م ركبت ثلاث ساعات أخرى أوزانها على التوالي، 50، 80 ،120 كغ، ويحمل الجزء الرابع من البدن ستة عشر شرافة وهي من النوع المسنن غير الحاد، وهو مكسو بالبلاطات الخزفية، أما القسم الثاني والذي يتكون من رأس المئذنة، فيضم جوسقاً ذو شكل مربع، زينت الأجزاء العلوية منه ببلاطات

خزفية، ويتوج الجوسق باثني عشر شرفة، ويعلوه قبيبة تتوجها ثلاث تفافيح معدنية(لوحة3).

لوحة 3: مقطع طولي للمئذنة وصورتها الحالية

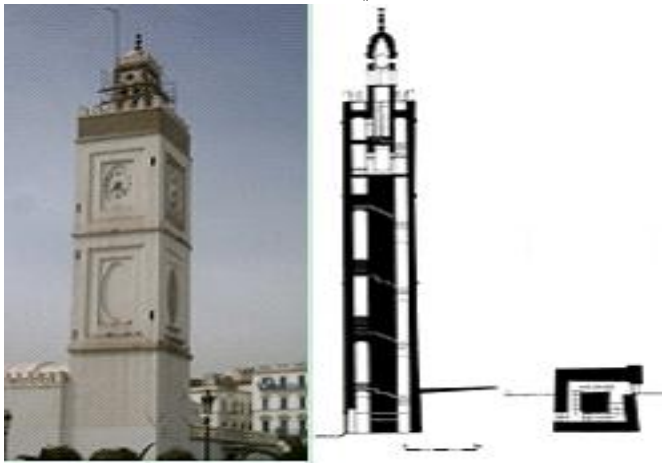

عن: المؤلف و(Doukali 1974)

أما منبر الجامع الجديد فيعود أصله إلى جامع السيدة، وحول هذا المنبر إلى الجامع الجديد بقرار من الجيش الفرنسي بعد أن هدموا جامع السيدة سنة 1832. (حمدان، 1982، ص ص: 288 -289) والمنبر فريد من نوعه فهو يحتل مكانة مرموقة ضمن المنابر الإسلامية عامة والمغربية خاصة، إذ يمثل آية في الجمال فيما يتضمنه من خصائص هامة كنوعيه المادة المصنوع منها وهي مادة الرخام الناصع البياض، إلى جانب التنوع في الزخرفة المتأثرة بالزخرفة الأوروبية خاصة فني الباروك والركوكو اللذان ظهرا وانشرا في أوروبا خلال القرنين 17 و18م. (Carayon, S.D, p. 16)

ورغم ذلك فإنه لا يخلو من الشعارات التي تدل على الصناعات الإسلامية، حيث يظهر ذلك من خلال شكله العام الذي ينتمي إلى

طراز المنابر الإسلامية الثابتة والمتكونة من واجهة أمامية قوامها دخلة معقودة بعقد حذوي، يرتكز على دعامتين، أما المنبر الخشبي فهو حديث(صورة11، 12).

صورة11 : المنبر الرخامي للجامع (صورة قديمة)

صورة 12: المنبر الرخامي والخشبي للجامع حاليا

عن: المؤلف.

تغطي القبة المركزية للجامع الجزء الأوسط من الأسكوب الثاني بعد أسكوب جدار القبلة، ويوجد تحتها دكة المبلغ بالمنبر الخشبي، قطرها9.85م، تظهر من الخارج قائمة على شكل مربع، تحف القبة المركزية أربعة قباب في أركانها الأربعة، ارتفاعها 2.5م

وقطرها 5.20م، تقوم هذه القباب على عقود نصف دائرية، غلبت على الجامع العقود النصف دائرية، وجدت بالجزء الذي يحمل القبة المركزية على هيئة أقبية، وفي البائكتين العموديتين والموازية لجدار القبلة، كما وجدت العقود النصف دائرية المزدوجة في الشمسيات الموجودة على الواجهات الخارجية للجامع(صورة 13).

صورة 13: القبة المركزية من داخل الجامع

عن: المؤلف.

تحتوي الواجهة الشمالية والشرقية على مستويين من النوافذ على شكل شمسيات، شبكت بالخشب مما قرب مظهرها من المشربيات، كما نجد أربعة مستويات غير منتظمة من النوافذ (الشمسيات) في كل من الواجهتين الغربية والجنوبية، أما أنواع الشمسيات التي بجنوبها فهي المزدوجة التي يفصل بينها عمود وتعلوها عقود، كما توجد شمسيات بنوعيها المعقود، والمخرمة بزخارف هندسية ونباتية مصنوعة من الجص.

العناصرالفنية والزخرفية:

نجد الزخارف النباتية بكل من واجهة العقد والعضادتين بالمدخل الرئيسي بالواجهة الغربية والمدخل الرئيسي، وأحد المداخل الثانوية بصفوف من الزهرات المتعددة البتلات، كما زينت درابزين

المنبر الرخامي بأزهار في غاية الجمال، كما نجد الأوراق على هيئة قلوب على مادة الجص تحيط بشمسيات المسجد، أما البلاطات الخزفية فنجدها في تجويفة المحراب باللون الآجوري والأخضر والأزرق (توجد به زخارف على شكل غصنان في هيئة قلب يحتويان على زهرة لالة، أما المئذنة فيوجد بها بلاطات ذات اللون الأبيض والأزرق والأخضر والأصفر على ورقة الأكنثة داخل معين، كما نجد الزخرفة الهندسية في القبة المركزية على الجص، ذات مثلثات وأطباق نجمية ودوائر، ووجدت الزخارف الكتابية في الكتابة التأسيسية ضمن أشرطة تحيط بالمحراب بالخط المغربي، وزينت بعض العناصر المعمارية بالزخارف الرمزية كالهلال.

دراسة تحليلية للسمات المعمارية والفنية للمساجد المدروسة:

من خلال دراستنا لمساجد القصبة السفلى خلال الفترة العثمانية من الناحية التاريخية والأثرية المعمارية والفنية انحصر لنا العديد من الحقائق سنقوم بذكرها من خلال هذا التحليل، الذي سندرج فيه نظام التخطيط، والوحدات والعناصر المعمارية، والسمات الزخرفية الفنية ومواد تنفيذها:

بالنسبة لنظام التخطيط ومن خلال هذه الدراسة الوصفية للمساجد ارتأينا أن ندرجها ضمن طرازين، فنجد مساجد قائمة على الأعمدة، ومساجد ذات القبة المركزية، وقد لاحظنا خلال دراستنا لهذين الطرازين، هو اختلافهما عن المميزات الأصلية لكل طراز فلا المساجد القائمة على الأعمدة استمرت في نفس الأسلوب المغربي، ولا حتى المساجد ذات القبة المركزية التي تشبه تلك الموجودة بتركيا بقيت أيضا بنفس الأسلوب، ومن خلال هذه الدراسة اتضح أن النظام

التخطيطي العثماني للمساجد استعمل جنبا إلى جنب مع الطراز المحلي، فقد كان للحكم العثماني لمدينة الجزائر تأثير مباشر على الإنتاج المعماري في هذه الفترة، وما طراز المساجد ذات القبة المركزية إلا دليل على هذا التأثير لأنه دخيل على المغرب الأوسط الذي لم يعرف قط طرازا مماثلا، بل اعتاد على طراز المساجد القائمة على الأعمدة، وهو استمرارية للمساجد المغربية لأنها ذات أصل عريق استمر في الوجود.

لقد درس رشيد دوكالي مساجد مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية وقد قسمها إلى أربعة طرز، الطراز الأول هو طراز المساجد القائمة على الأعمدة، أما الطرز الثلاثة فهي المساجد ذات القبة المركزية، كل طراز بخصائصه، فالطراز الأول هو القاعة المربعة المغطاة بقبة مركزية، محاطة بأروقة مغطاة بقبيبات مثل مسجد علي بتشين، أما الطراز الثاني فهو القاعة المربعة المغطاة بقبة مركزية قائمة على حنايا ركنية، ولا نجده في المساجد التي درسناها ولكن نجده مثلا في جامع الصفر، بينما التخطيط الثالث فهو التخطيط البازيليكي مثل الجامع الجديد، (Dokali, 1974, p. 37)، ولكن من خلال الدراسة لاحظنا اشتراكها في خاصية واحدة وهي القبة المركزية، وانطلاقا من هذا البحث أدرجناه ضمن طراز واحد ولكن بنمطين، فالنمط الأول هو الفريد من نوعه في الجزائر كلها ويتمثل في الجامع الجديد فانفراده يكمن في تخطيطه، أي وسيلة التغطية التي اتخذها والمشكلة من قبة مركزية يكتنفها من جوانبها الأربع أقبية مهدية أحدها ممتد، مما أعطى للمسجد تخطيطا متعامدا على شكل صليب (صورة 9)، أما النمط الثاني فيتمثل في المساجد ذات القباب

المركزية المحاطة بأروقة تغطيها قبيبات وأقبية، فنجدها في جامع علي بتشين(شكل2، صورة 7).

رغم أن مساجد مدينة الجزائر قد استلهمت طرازها هذا من مساجد تركيا إلا أنها لم تكن بنفس الروعة والأناقة وكبر المساحة، فهذه المساجد صغيرة الحجم تعتمد على مربع مركزي يحمله أربع دعامات أو أعمدة وتحيط به أروقة، ولقد كان بالإمكان تغطية كامل بيت الصلاة بقبة واحدة لكن سببا ما جعل المعماري يلجا إلى هذا التخطيط، ربما يكون مستوى الدراية بفنون العمارة لدى المعماري الذي بناها لم يصل النضج المتطلب لهذا النوع من التغطية، وما هذه طبعا إلا فرضيات، وسواء كان الأمر هذا أو ذاك فان المعماري استطاع أن يجد الحل الملائم لهذا الوضع وهو اللجوء إلى الأساكيب الموازية لأسكوب المحراب والموجودة خلف مربع القبة المركزية مما يدل على الرغبة في توسيع المبنى ليسع أكبر عدد من المصلين، مثل تلك التي نجدها بجامع علي بتشين، وكتشاوة في مخططه الأصلي وكذا الجامع الجديد بحيث نجد بالأول أسكوبين وبالثاني ثلاثة أساكيب.

مخطط جامع كتشاوة يتشابه إلى حد كبير مع مخطط مسجد علي بتشين (شكل 1، 11) مع وجود اختلافين رئيسيين بينهما، أولهما أن القبة المركزية في مسجد على بتشين تقوم على الدعامات المتقاطعة الأضلاع (المركبة)، والأعمدة نجدها مزدوجة، كما لا نجد الرواقين المزدوجين في الجهة الموازية لجدار القبلة مثلما هو موجود في مسجد كتشاوة، بل ترك المكان في مسجد علي بتشين فضاء فسيح غطي بما يشبه القبة الهرمية في العهد الفرنسي، وهو شكل لم يكن مألوفا في

العمارة الإسلامية، مما يزيد في الاعتقاد أنه من عمل المسيحيين، عندما كان المسجد بين أيديهم. (Dokali, 1974, p. 38)

أصبح الفراغ الداخلي الذي نشأ عن محاولة تقليص عدد الدعامات والأعمدة واضحا للعيان، ولم تعد بيت الصلاة مكتظة بوسائل الدعم التي كانت غالبا ما تتمثل في دعامات ضخمة كتلك التي نجدها بجامع كتشاوة، بعدها أصبحت عبارة عن أعمدة رشيقة قليلة الارتفاع.

بالنسبة للوحدات والعناصر المعمارية من بينها الصحون، التي روعي في تخطيطها عوامل عدة، من بينها المناخ، الذي يعتبر عاملا أساسيا له دوره الكبير في التكوين المعماري لكل مبنى، وما الصحون إلا دليل على هذه الأهمية والدور الأساسي لهذا العامل، فالمساجد في أول الأمر لم تستغن قط عن الصحون، بل كانت هذه الأخيرة جزءا لا يتجزأ من المساجد التقليدية التي اتخذت منه وسيلة للتقليل من الحرارة القاسية المعهودة بالمدن الإسلامية الأولى، حيث تطل عليه بيت الصلاة وتستمد منه الإضاءة والتهوية، لذلك روعي دائما أن يكون مواجها لها، وغالبا ما نجد وسط هذا الصحن نافورة تزيد من لطافة الجو، فضلا عن وظيفتها الرئيسية التي هي الوضوء للصلاة، وعلى العموم بناء الصحون مرتبط بالجو، وهناك بعض المدن الإسلامية رغم مناخها الذي يتميز بالبرودة الشديدة والأمطار الغزيرة فإنها حافظت على القيمة الروحية للصحن، مثل مساجد الدولة العثمانية بتركيا، وغيرها، ورغم استغناء الأتراك عن هذا الأسلوب لفترة ما فإنها عاودت الرجوع إليه، وفي حقيقة الأمر لا يمكننا تفسير هذه العودة، هل هي الحنين للتقاليد المعمارية الإسلامية الأولى؟ أو إرادة

التميز عن الكنائس البيزنطية؟ أم هي الرغبة في الانفتاح على العالم الخارجي والابتعاد عن التقوقع الناتج عن انغلاق المسجد نفسه؟

أما في مدينة الجزائر وفي المساجد المدروسة أو التي اطلعنا عليها فإننا نجد هذا النوع من الصحون في مساجد مدينة الجزائر بنسبة قليلة جدا، إلا ما احتواه جامع علي بتشين، والتي اتخذ فيها الصحن وضعية ثانوية للغاية إذ نجده يأخذ مكانا على يمين بيت الصلاة بمساحة متواضعة وغير منتظمة، وهو يحتوي على نافورة، ولا يمكننا تفسير هذا الاستغناء والوضعية الثانوية للصحون بمدينة الجزائر التي تتميز بمناخ معتدل أي غير قاس شتاء، وهذا في الواقع يقتضي صحونا للتقليل من حرارة الصيف، وهناك أمر جدير بالذكر هو أن مساجد مدينة الجزائر بطرازيها (القائم على الأعمدة، وذو القبة المركزية)، الأصل فيهما أن يكونا ذوي صحون، إذ لم يستغن كلا الطرازين عن هذه الخاصية سابقا سواء في المغرب أو في تركيا، خاصة في هذه الأخيرة لأننا نعلم أن مساجد الجزائر تأثرت بالمساجد التركية، حيث أصبحت الصحون بمساجد تركيا تتخذ مساحة جد هامة ومحورية على بيت الصلاة وتحيط بها الأروقة ومؤخرة المسجد، إلا أنها أهملت بمساجد مدينة الجزائر، كالجامع الجديد، وهي إن عاودت الظهور بكل من مسجد علي بتشين فهذا الظهور لم يعد له أهمية إذ نجدها جانبية، إلا تلك النافورة الموجودة بها.

إن بيوت الصلاة المعروفة في العالم الإسلامي رغم اختلافها كانت تخضع لطراز معين هو ذلك القائم على الأعمدة أو الدعامات، والمقسم بواسطتها إلى أساكيب وبلاطات يختلف عددها تبعا لمساحة المسجد، ولقد أدت وسائل الدعم هذه إلى اكتظاظ بيوت الصلاة وعدم

وضوح الرؤية بها، لهذا عمل المعماري ابتداء من الفترة العثمانية، منذ أولى منجزاته إلى تفريغ بيوت الصلاة لتحقيق هدفه الأول والمتمثل في تحقيق وحدة مكانية مفرغة، حيث اعتمد المعماريون أول الأمر على الإرث العربي فأنجزوا بيوتا للصلاة قائمة على الأعمدة لكن بصفة تختلف تماما عن المساجد التقليدية بحيث لجؤوا إلى توظيف القباب كوسيلة للتسقيف لأن شكلها المقعر لا يقتضي عددا كبيرا من وسائل الدعم، هذه الطريقة أفرغت نوعا ما بيت الصلاة وحققت بها اتساعا أفقيا وعموديا وزادت النوافذ الكثيرة أي الإضاءة المتوفرة من رحابة المكان، وهذا ما لاحظناه في الجامع الجديد، وجامع علي بتشين.

ونتوصل هنا إلى نتيجة، أن بيوت الصلاة في مساجد مدينة الجزائر فريدة في العالم الإسلامي إذ أنها تختلف عن النماذج الأصيلة المستوحاة منها، فبيوت الصلاة المغطاة بقبة مركزية رغم أنها استوردت تخطيطها من تركيا إلا أنها تختلف عنها من حيث التجزئة والحلول.

لا يكاد يخلو أي مسجد من مئذنة، بل أن هذه الأخيرة أصبحت المعلم البارز والدال على انتماء المبنى إلى الدين الإسلامي بشموخها وعلوها وكأنها تشير إلى وحدانية الله، والمآذن الموجودة في المساجد المدروسة ما هي إلا استمرارية للنمط المغربي المتمثل في المآذن المربعة، فنجدها بجامع علي بتشين، وجامع جديد، وجامع كتشاوة، التي كانت في الأصل مربعة الشكل، أما المئذنتين الموجدتين الآن فهما من العهد الفرنسي(اللوحة1، 3).

وقد اتخذت المآذن الجزائرية من المآذن الزيانية نموذجا لها من حيث شكل البدن والجوسق، لكنها مع الأسف لم تتخذ نموذجا لها من حيث الزخرفة مما جعلها بسيطة جدا، أما المآذن المثمنة والتي هي اشتقاق من المآذن العثمانية لا نجدها في المساجد المدروسة.

إن المداخل في أي مبنى تخضع لعوامل عدة أهمها مساحة المسجد وموقعه من العمران، وكذا المواد التي تبنى بها، فبمدينة الجزائر تلاءمت المداخل مع التركيبة العامة للمباني، إذ أنها تتسم بالبساطة والأناقة في آن واحد، ولقد اختلف موضعها من مسجد إلى آخر تبعا لموقعه من المجمع السكاني وأيضا لحجمه، وتنوعت بها المداخل بين الرئيسية والجانبية.

كانت بيوت الصلاة في الفترات الإسلامية الأولى تستمد الإضاءة والتهوية من الصحون وكان من المتبع أن تكون جدران بيت الصلاة خالية من النوافذ إلا فيما ندر، (فكري، 1965، ص: 132) لكن العمارة العثمانية قلبت الأوضاع واستعملت هذا العنصر المعماري بإفراط كبير، لأنها رأت فيه مساهمة في إدراك أجزاء وأطراف المبنى، وقد اختلفت مساجد مدينة الجزائر المدروسة اختلافا كبيرا عن مساجد تركيا من حيث استعمال هذا العنصر المعماري، إذ نجدها قليلة بالمقارنة مع مساجد تركيا، وللجامع الجديد حظ أوفر من الإضاءة، مقارنة بالمساجد الأخرى بحيث نجد أن واجهته الشمالية والشرقية تحتويان على مستويات غير منتظمة من النوافذ (الشمسيات)، كما نجدها في كل من الواجهتين الغربية والجنوبية.

نجد في المساجد المدروسة شكل واحد من المحاريب، وهو الشكل المضلع، بالجامع الجديد، وجامع علي بتشين، وهي بسيطة

جدا، تعلو حنيتها عقود حدوية أو منكسرة وأغلبها يكتنفها عمودان من الجانبين، والشكل المضلع كان سائدا بالجهة الغربية من المغرب الأوسط، ونلاحظ معاودة استعماله في المساجد ذات القبة المركزية، مثل الجامع الجديد.

من أروع التحف التي جاء بها الفن الإسلامي بالجزائر نجد منبرين، المنبر الخشبي بالجامع الكبير والمنبر الرخامي بالجامع الجديد المجلوب من جامع السيدة، وهو يشبه إلى حد بعيد منابر تركيا العثمانية، فالقبيبة التي تعلوه مخروطية الشكل، وهذه الأخيرة لم تقتصر على المنابر الرخامية فقط بل نجدها تزين المنابر الخشبية في الجامع الجديد(صورة11).

تعتبر الدعامات وسيلة الدعم الأكثر استعمالا في بيوت الصلاة، نظرا لقدرتها على حمل ثقل السقف، ولحجم المبنى أثر على حجم الدعائم، فكلما زاد كبره زادت في الضخامة، لذا نجدها في جامع علي بتشين، كبيرة في أركان المربع المركزي نوعا ما، وهي تتلاءم ونسب المبنى كما نجدها بالجامع الجديد وعددها ثمانية دعامات، أربع منها موجودة في أركان المربع المركزي وأربع تحمل القبو المهدي الممتد، ولقد اتخذت هذه الدعامات شكلا متقاطعا محفورا في الوسط.

استعمت وسيلة الدعم المتمثلة في الأعمدة، في الأماكن التي يقل الضغط بها كما يمكن لها أن توجد جنبا إلى جنب مع الدعامات حتى تساعدها في حمل الثقل من جهة، وتجمل المكان من جهة أخرى، وأغلب المساجد المدروسة بمدينة الجزائر وظفت هذا العنصر المعماري في رفع ثقل سقفها، لذلك نجدها عامة داخل بيوت الصلاة، كما أن

أعمدة جامع كتشاوة تختلف على أعمدة المساجد المدروسة، فهي فريدة من نوعها، ذات شكل مستدير أملس وكبيرة، كما نلاحظ أن قواعد الأعمدة بمدينة الجزائر بسيطة وقليلة الارتفاع إذا ما قورنت بتلك الموجودة بمساجد المشرق والمغرب وتركيا العثمانية، كما تنوعت أشكال الأبدان من مسجد إلى آخر، وعرفت المساجد المدروسة أنواعا عدة من التيجان، أغلبها ذو طابع جزائري، وتيجان مركبة من أوراق الأكنثة تعلوها أشكال حلزونية جانبية مفصولة بهلال.

رغم الثراء المعماري الذي عرفه المغرب الأوسط خاصة من ناحية التنوع في العقود ذات الأشكال الجميلة، إلا أن مساجد مدينة الجزائر كان عطاؤها ضعيفا جدا في هذا المجال، حيث نجد أن هذا العقد المنكسر المتجاوز هو الأكثر استعمالا فنجده في علي بتشين أما الجامع الجديد فقد استعمل به العقد النصف الدائري المزدوج.

بالنسبة للقباب فقد أصبحت القبة المركزية والقبيبات المحيطة بها هي وسيلة التسقيف الأكثر استعمالا لدى معماري مدينة الجزائر، لكنها اختلفت في شكلها كل الاختلاف عن قباب تركيا إذ أننا نجد نوعين من القباب منها المضلعة وهي النوع السائد وكذا البيضوية التي لا نجد لها مثيل إلا بالجامع الجديد (صورة 9)، كما نجد القباب المضلعة بجامع علي بتشين وجامع كتشاوة، تحيط بهم قبيبات، ومن خلال ما سبق ذكره لا يمكننا التشكيك في أن هذا النوع من التغطية قد أتى به العثمانيون إلى مدينة الجزائر، لكن ما اتضح أيضا أنه لم تستعمل القبة النصف كروية على الإطلاق، بل أن القبة المضلعة هي التي كان لها حظ أوفر في الاستعمال إلى جانب توظيف واحد للقبة

البيضوية، ولابد أن هذا الأمر هو استمرار للإرث المعماري المغربي. وتوظيفه في المساجد المدروسة ليتفق والنظام الجديد للتسقيف.

أما عن العناصر الزخرفية ومواد تنفيذها، فقد تنوعت العناصر الزخرفية بالمعالم المدروسة وبالتالي تنوعت الصناعات المستعملة في سبيل ذلك، منها الزخرفة بتكسية البلاطات الخزفية ومنها الزخارف الجصية ومنها الخشبية التي استعملت في المنابر والأبواب، أما عن التكسية بالبلاطات الخزفية فنجدها تقريبا في معظم المساجد المدروسة، أما الزخرفة الجصية فنجدها بالجامع الجديد، كما استعمل الرخام والحجر الجيري في الأعمدة والتيجان والمنابر وأطر المداخل في معظم المساجد، واستعملت في الزخرفة الخشبية العديد من الطرق والأساليب الزخرفية مثل الخرط والتعشيق والتخريم.

برزت أغلبية العناصر النباتية المعروفة في المغرب الأوسط وعند العثمانيين، مثل زهرة القرنفل والالة والرمان، واستمرت المراوح النخيلية وأنصافها، كما نجد العناصر الهندسية في جميع المعالم المدروسة من أطباق نجمية ومعينات ورمزية كالهلال والنجمة.

جل المساجد من حيث مظهرها الخارجي يوحي ببساطة لا تخلو من التناسق والأناقة رغم خلو واجهاتها من الزخرفة، هذه الواجهات مغطاة كلية، ولا تظهر منها أية مادة للبناء تخترق بعض النوافذ جدرانها، وغالبا ما يبرز المحراب بشكل مضلع مثل الجامع الجديد وعلي بتشين، وتتميز هذه الجدران بالعلو في الجامع الجديد وبالأبعاد المتواضعة في جامع علي بتشين.

خاتمة:

وفي الأخير نقول أن الوجود العثماني بمدينة الجزائر غير الكثير من الخصائص المعمارية التي كانت سائدة بالمغرب الأوسط، وذلك من خلال إعادة توظيف الوحدات، وتمييز وحدة عن أخرى وإعطائها أهمية أكبر، في حين لقيت بيت الصلاة كل الاهتمام لتحقيق الابتكار العثماني الجديد بها أي تفريغها وتحقيق كل من الاتساعين العمودي والأفقي بها، كما نجد أن الصحن وملحقاته لم تلق أهمية تذكر، بل لم توظف في غالب الأحيان، أما المآذن فإنها استنبطت الشكل المربع لمآذن المغرب، كما أن الطراز القائم على الأعمدة وذو القبة المركزية ما هو إلا مزيج ولد نموذجا جديدا من المساجد بمدينة الجزائر، ويجب التأكيد أن هذا التغير ليس تأثيرا عثمانيا بحتا بقدر ما هو مزيج وابتكار في آن واحد.

إن الدارس أو المتفحص لهذه المساجد المدروسة أو المساجد الأخرى المتواجدة بقصبة مدينة الجزائر سيلاحظ أن هناك ارتباطا وثيقا بين الطراز المحلي السائد في الجزائر والطراز المغربي والعثماني.

قائمة المصادر والمراجع:

1 -باغلي سيد أحمد. (1982). **سلسلة فن وثقافة (الإصدار 2)**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

2 -بورويبة رشيد. (1984). **الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية**. (ابراهيم شبوح، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة أحمد زبانة.

3 -بوشوشي طاهر. (1973). **صفحات من تاريخ جامع كتشاوة**. مجلة الأصالة، عدد:14، الجزائر.

4 -خوجة حمدان. (1982). **المرآة**. (تحقيق الزبيري محمد العربي، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

5 -سعد الله أبو القاسم. (1998). **تاريخ الجزائر الثقافي (1830 -1954)** (المجلد 5). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

6 -عقاب محمد الطيب. (1987). **جامع كتشاوة في ذاكرة التاريخ**. العدد: 44 .

7 -فكري أحمد. (1965). **مساجد القاهرة ومدارسها**. مصر: دار المعارف.

8- André Julien, C. (1964). ***Histoire de L'Algérie Contemporaine (Vol. T1)***. France: Presses universit. de France.

9- Augustin, B. (1937). ***L'Algérie terre d'art et histoire***. Alger: Ancienne imprimerie V. Heintz.

10- Belahemiss, M. (1983). ***Histoire de la marine Algérienne (1516,1830)***. Alger: entreprise nationale de livre.

11- Colin, G. (1901). ***Inscriptions arabes et turques de l'Algérie (Vol. 1)***. paris: département d'Alger.

12- Devoulx, A. (1870). ***Les édifices religieux de la régence d'Alger***. Alger: Impr . de Bastid.

13- Dokali, R. (1974). ***Les mosquées de la période turque à Alger***. Alger: SNED.

14- George Carayon. (S.D). ***Le Travail artistique du bois en Algérie***. Alger: Edition, Publication.

15- Klein, H. (1937). ***Feuillets d'el-Djezair***. Alger.: Edité par L. Chaix.

16- Lessore W. Wyld. (1835). ***Voyage pittoreque dans la régence d'Alger exécuté en 1833 et lithographic.***

17- Marçais, G. (1954). ***L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie , Algérie , Maroc Espagne et Sicile***. Paris: Arts et Métiers Graphiques.

18- Marçais, G. (1996). ***Notes historique sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger***. pp. 21-34.